الشخصيات وبناؤها في رواية "سروال بلقيس"

للروائي صبحي فحماوي

الكاتب: أمين دراوشة

تصور رواية "سروال بلقس"، حياة العذاب والتشرد والأحلام الضائعة التي يعيشها اللاجئ الفلسطيني، وذلك خلال ٢٤ ساعة، وتستعرض حياة سكان مخيم في منطقة ما من الوطن العربي عام ١٩٥١م، يبدأ الزمان من فجر يوم ربيعي، إلى فجر اليوم الآخر، ومن خلال الاسترجاع والتذكر تعود شخصيات الرواية إلى سنوات سابقة على الاحتلال الإسرائيلي حيث الحياة المليئة بالرغد والطمأنينة والفرح. وينتقل مباشرة لتخصيص المكان الذي ستدور أَحداث الرواية فيه، ويظهر لنا منذ البداية إننا بصدد مكان قاس ومرعب يؤثر في شخوصه، كما تؤثر الشخوص فيه. الكاتب لم يذكر اسم البلد المجاور لفلسطين الذي أقيم على هامشه المخيم بشكل مستعجل وعشوائي، وهو بذلك يومئ إلى أَنَّ "كل المخيمات في البلاد العربية المجاورة سواء، تعيش نفس الأوضاع المزرية البائسة، ونفس المعاناة الأليمة القاسية". (١)

والزمان على الأغلب في أحداث الرواية فجراً، وكأن الراوي أراد القول، إنَّ الصبح سيشرق قريباً في قلوب اللاجئين.

فمع نجمة الصباح، "حيث السكون الموحش بظلام يُغلف خيام المُخيّم، المتجمعة رابضة تحت سحب الضباب، السابحة جحافلها بصمت مريب نحو الشرق، فتبدو الخيام كبقايا مهاجع لواء عسكري منكسر، جرّهُ الخراب، فمرَّ مستسلماً مخذولاً مدلدل الآذان في وديان فلسطين وسفوحها..". (٢)

تنهض الشخصية المحورية في الرواية، والتي سميت الرواية باسمها قبيل الصبح، لتذهب في رحلة مضنية للبحث علن الطعام لعائلتها. العائلة التي تسكن خيمة آيلة للانهيار.

الرواية تحتشد بالشخوص التي لعبت دورها في أحداث الرواية، فكان هناك الشخصيات الرئيسية والمحورية التي دارت أحداث الرواية حولها، وشخصيات ثانوية كان لها دورها المؤثر في بناء الأحداث المتشابكة، وشخصيات ظهرت كوميض ألقت حمولتها لفترة قصيرة جداً، ورحلت ولم تعد تظهر ثانية.

قسم الروائي الرواية إلى ما يشبه التمهيد منح فيه القارئ صورة عامة عن الرواية، وشخصياتها الفاعلة، وإلى سبعة أقسام مرقمة، واكتفى بالقسم الأول في وضع أبيات شعرية من قصيدة مشتركة لمحمود درويش ومعين بسيسو، تقول: "حصارنا طويل

سنخبز الحجر

ونعجن القمر

ونكمل السفر". (ص ١٩)

أَمَّا الأقسام الأخرى فجاءت دون عناوين أو مقدمات.

يتناول الروائي حياة عائلات فلسطينية لاجئة، لم تصل إليها زخات الرشاشات ولا قنابل الطائرات الحربية المتجولة في سماء المنطقة، ويتكدسون كأسراب طيور مُكسّرة الأجنحة فلا تستطيع الطيران، كتبت لها الحياة لتأخذ نصيبها من العذاب. يشبه اللاجئون في ذاك الوقت بقايا أحياء يتجمعون في بؤر من أراضي الشتات. حيث أقيمت لهم الخيم لتحميهم من حر الصيف وبرد الشتاء، وليدفنوا فيها أحياء. اللاجئون لم ينسوا في خضم هذه الأهوال أَنْ يحضروا معهم سندات تسجيل أرضهم، ووثائق أفراد عائلاتهم وشهادات مدارسهم، ومفتاح البيت الذي لم يبقَ سواه. وبعد أيام مات من مات، وأصيب بالعجز والشلل من أصيب، قام أغلبهم متناسين الجراح يحاولون ترتيب أوضاعهم المؤقتة لحين العودة. وبعد شهور من ضنك العيش، والبحث عن عمل، اكتشف المهجرون إِنَّه لا يوجد عمل في هذه البلاد وما حولها.

وبما ان البشر يحتاجوا الغذاء والماء، لذا لم تجد النساء سوى الانطلاق إلى الجبال لجمع الأعشاب البرية لإطعام أطفالهن، أمَّا الرجال فلم يكن ممكنًا لهم إلا العمل في كسارات الحجارة، وهو عمل يشبه الأشغال الشاقة، والكسارات كانت سابقاً ملكاً لمعسكرات الجيش الإنجليزي المحتل، وكان يستخدمها ليعمل فيها من أصدر الحاكم العسكري الإنجليزي

بحقهم قرار إعدام، أو للمحكومين بالأشغال الشاقة المؤقتة، أو حتى المؤبدة، فهم يعملون هنا إلى أنْ يأتيَ أجلهم. دخل الرجال بأرجلهم إلى هذا الجحيم؛ لأنه لم يكن في وسعهم إيجاد طريقة أخرى لكسب العيش.

لذلك عندما كانت بلقيس تتجه شرقاً مع جارتيها لقطف الأعشاب البرية، كان زوجها أبو رزق يُحضِّر نفسه، للانطلاق إلى عمله المضني في الكسارات.

كل هذه العذابات كانت تهدف إلى البقاء على قيد الحياة وحسب، وذلك بتوفير الماء والطعام، والإبقاء على القليل من صون الكرامة.

إنَّ اللاجئين الذين فقدوا كل شيء، يحاولون بكل ما أوتوا من قوة البدء من جديد، يحاولون دون ملل البقاء على وجه الأرض، ويحاول الراوي أنْ يعري الواقع الأسود، ويكشف بؤسه ليبقي شعلة الغضب حية ضد من تسببوا في هذا الدمار.

ويلجأ الكاتب في الرواية لاستخدام السخرية والتهكم، واستخدام الأمثال الشعبية الفلسطينية، وكان موفقًا بذلك؛ لأنه استطاع أَنْ ينفد إلى قلب القارئ، وجعله يتشبث بالقراءة حتى النهاية المنتظرة.

إنَّ حياة اللاجئين في الرواية، أظهرت القدرة على الحياة، وتجاوز آثار الدمار والتشرد، وبينت إنَّ اللاجئ ليس مجرد بهيمة يمكن أَنْ يمتطيها أيٌّ كان، بل إنَّه قادر على الدفاع عن قوت أطفاله، وكرامته بكل الطرق الممكنة. وإنَّ الواقع المرير يمكن أنْ يتغير ويتبدل من خلال الجيل الواعد في المخيم الذي طفق وعيه يتفتح على المأْساة ويرفضها ويتمرد عليها.

سروال بلقيس...رمز التحدي والجرأة والمغامرة
الشخصية المحورية التي تدور معها وحولها الأحداث

تواجه الروائي مهمات صعبة وهو يبني مشروعه روايته، وتكاد تكون مهمة بناء الشخصيات أصعبها، ولا سيما الشخصيات الرئيسة، لأن عملية رسمها تقتضي "إحاطة بالنزعات النفسية وطبائع البشر، وبالمواصفات الاجتماعية المتواضع عليها، وبما ينبغي

للشخصية المحورية أنْ تتحلى به من صفات ومزايا، تؤهلها للسلوك الصحيح والمناسب مع سائر شخصيات الرواية، وبما يهيّئها للمشاركة الفاعلة في صنع الأحداث، وإدارتها بوصفها محور تشابكها وبؤرة تجمعها، ومكان تفرعها حتى تلتقي مرة أخرى في الزمن المواتي، وعبر تطور السرد". (٣)

ويتمتع الروائي بمهارة بناء الشخصيات، وبث الحياة فيها لدرجة إنَّ القارئ يحس بنبض قلبها وحركتها، ورواية سروال بلقيس تعتبر من الروايات التي تمثل نموذجاً مثالياً نظراً لحيوية الشخصيات التي تعيش فيها، والكشف عن الأبعاد النفسية والاجتماعية لها مما يناسب الأجواء الروائية.

في الفصل الأول ركز الروائي على الشخصيات النسائية، وصور حركاتهن ومشاغباتهن، وسجل أحاديثهن، وكان لبلقيس جل الاهتمام، فقام الروائي برصد تحركاتها، ووصف أفعالها، وجعلها تُعبِّر بحرية عن أفكارها وأحلامها، وموقفها من العيش في المخيم، وموقفها من العالم الظالم. وبيّن لنا طريقة عيشها ومستواها الاجتماعي قبل وبعد اللجوء.

فهي امرأة خمسينية، تمتاز بقوة الشخصية، والصلابة والتماسك حتى في أشد الظروف قساوة، وهي الشخصية المحورية التي تدور حولها أغلب الشخصيات الأخرى، فهي التي تنهض مع الفجر صارخة بصوتها الجهوري في نداء متفق عليه مع جاراتها ليذهبن بحثاً عن نباتات برية لإطعام أطفالهن، وبيع ما يفيض من أَجل الاحتياجات الأخرى.

ويفاجئنا الراوي بالحديث عن هذه الشخصية، التي تصحو باكراً من أجل أموراً كثيرة، منها التبول في الممر الترابي الضيق المتعرج، المتروك كطريق لمرور الناس من بين صخوره، فالخيام دون حمامات لذا يضطر اللاجئين التبول في أمكنة معينة وأوقات معينة، وكأن اللاجئ وقّت إخراج فضالات بحيث لا يراه أحد أثناء العملية.

ويرسم الكاتب شخصية بلقيس بدقة، فيصف جسدها ومميزاتها المادية، فهي امرأة شجاعة ولكن فوضوية، وهي عملاقة الطول، "نحيلة الجسد المجفف، محدودبة الظهر بعض الشيء، وذلك من تراكم أحمال الهجرة، التي أَحنت قامتها الجبارة، وهي جريئة،

حادَّة النظرات المنبثقة من روح حطمتها الأحداث، ولكنها لم تهزمها، ووجه شوته الشمس بحرقتها، فأبقته بُنيّاً مُجعداً وهو كظيم". (ص ٢٢)

هذه البيئة القاسية التي وجدت نفسها فيها، أثرت عليها وعلى تصرفاتها وسلوكياتها، فهي دائما مبادرة للقيام بالعمل لتخفيف وطئة الهجرة المأساوية، التي نزلت على عائلتها وعلى الشعب كصاعقة فجائية، وكأنها كابوس لا فكاك منه.

تذهب بلقيس وصاحباتها إما لجمع بقايا الزيتون لاستخدامه كوقود كما فعلت الخريف الماضي، أو تسير نحو الجبال في الربيع الذي لا يختلف بقسوته عن بقية الفصول بالنسبة للاجئين، فهو بالنسبة للنساء فصل العمل الشاق في البحث في الجبال والوديان عن الأعشاب البرية التي تعرف اللاجئات فوائدها، وبلقيس تقود جاراتها بكل ثقة بالنفس وهمّة غير عابئة بالزواحف المخيفة ولا الحيوانات المفترسة.

والفصل الأول الذي تضمن شخصيات نسوية عديدة، والذي "برزت فيه سجايا النسوة وطبائعهن وميولهن، تسللت بلقيس منسابة كالأفعى لتحتل مكان الصدارة، حيث دار كثير من أحداث الرواية ووقائعها حولها، وتنامى بعضها قريباً منها، ومن ثم اكتسبت ما تستحقه من حضور كثير متميز يناسب دورها المحوري". (٤)

أغلب شخصيات الرواية ظهر على تصرفاتها القلق والإحباط والعصبية، "والتطرف والتوتر النفسي يطبعان تصرفاتها وأفعالها بالسلوك الغريزي والرغبات الجنسية والتعبير عنها، وفي التعامل بها في مجتمع الرواية بأساليب شتى، إلا أَنَّ بلقيس طبع الاعتدال سلوكها وتصرفاتها وحديثها". (٥)

ويغدق الراوي الصفات على بلقيس، فهي تعنف جارتها صالحة السمراء التي تستفسر عن طبيعة أوراق اللسينة والزعمطوط والحمّيض وغيرها، وتنقض عليها بنظرة الثاقبة، وهي المرأة مهابة الجانب، والتي تشبه "ساق شجرة برية مقاومة للجفاف والعطش، بعينيها السوداوين الصغيرتين المستديرتين، في بؤرتي تجعدات رموش ذابلة، وجفون مجففة، لوحتها حرارة الشمس". (ص٢٤-٢٥) هذه الصفات المكتسبة من البيئة الجديدة، والمعيشة المرة كالعلقم، تقول لجارتها: ""صرت يا سمراء تجهلين أوراق اللسينة والزعمطوط والعلت والحُمّيض؟". (ص ٢٥) وأدركت أيضاً الصديقة والجارة

حمدة المحمودية قصد بلقيس، فهزت زنارها الحرير العريض المُقَصّب، وأضافت قائلة: والشومر والزعتر، والعكوب. تم التفاهم بينهن على الانطلاق فجر الغد، وفي رمزية لافتة عندما ينطلقن وسواد الليل ما زال يغطي الأشياء، تقول إحداهن: نحن لا نعرف الوقت، فقد سرق الجنود على الحواجز العسكرية ساعاتنا، وكان الراوي يلمح أنَّ اللاجئ قد سرق زمنه، ولم يعد يعرف عدد الأيام التي يحياها في ظل هذه الظروف القاهرة والتي كان الحديث من قبل القيادات العربية إنها مؤقتة وطارئة لحين تحرير فلسطين من العصابات الصهيونية. وفي تدخل خارج عن حديث النسوة، تقول بلقيس في مرارة: "أنا لا أفهم هؤلاء الذين نسميهم "وطنيين"، بينما هم يسموننا "لاجئين"، كيف يهون عليهم أن نجوع وهم يشبعون، وكيف يُصنِّفونا أننا ناس من الدرجة الثانية بسبب الهجرة، ويجعلون أنفسهم أكابر من الدرجة الأولى، وقد كنا في حيفا ويافا وعكا أهل عِز وجاه، وزراعة وتجارة رابحة، وجمال أخاذ، مثلنا مثلهم على أقل تقدير؟". (ص ٤٩) فالاحتلال قد يحتل فلسطين كلها، ويستولي على بلاد العرب كلها فيصبح كل العرب لاجئين في الصحاري ليموتوا دون ضجيج.

تعمل النساء بالأجرة اليومية في المواسم في مزارع الخُضار المروية من بئر أبو عبد النور، وعندما لا تجد الواحدة منهن عمل كانت، تذهب (تتبعَّر)، فتُلقِّط الضائع من حب شجر الزيتون بعد قطفه... ولكن بلقيس لم تكن تفعل ذلك، فهي تقول لصاحباتها: أما أنا فلا أتوان على الهجوم "على شجرة زيتون حاملة من عينيها، ولما أشوف قطوفها دانية يا بنت عمي، وبعدها بخيرها يمّ، وأصحابها بعدهم ما استفتحوا فيها، فتلاقي نفسي تنفتح عليها، وأستشري مثل المجنونة، فأهجم على زيتونات الشجرة، ...تلاقيني أخرط وأحط في لباسي..أخرط وأعبي في جيبي المشقوق من تحت، حتى ينتفخ لباسي، ويصير مبطبط بين رِجليّ وحولهن، مثل برميل السردين الإنجليزي". (ص ٥٥-٥٦)

وهنا يخبرنا الراوي إنَّ سروال بلقيس معروف بين الجارات، وفي شرق المخيم كله، بأنه ليس سروالاً عادياً، فهو مصنوع من قماش كتان الشوادر، وطويل وعريض لدرجة أن المارّة يسمعون صوت خشخشات حراشيف وثنيات رجليه، بينما هي تسير، إنَّه مصنوع بشكل مميز ليستوعب سطوتها على ثمار زيتون الآخرين، أو على قمح بيادرهم،

أو غيره من الخيرات التي يمكن الحصول عليها وإدخالها في جيب السروال. فهي تؤمن أنَّ من حق أولادها تناول الطعام حتى لا يموتوا جوعاً أو يصابوا بالأمراض، لذا هي تبرر لنفسها هذا التصرف إنَّ الضرورات تبيح المحظورات.

وتظهر جسارة بلقيس في أحد الأيام، عندما قبض أحد الوطنيين عليها، وهي تلتقط الزيتون من أرضه، فحاول أنْ يستغل الموقف، ويهينها ويراودها عن نفسها مستغلًا حالة الضعف والارتباك التي تعيشها، إلا أنها تماسكت وحدقت به، وهددته حتى خاف من أنْ يسمع أحداً صراخها، فليبسه العار، فانسحب مسرعاً يجر خلفه الفشل والعجز من نيل مراده. أمَّا هي فشعرت "بقيمتها الإنسانية، وبقدرتها على (المقاومة)، وبأنها بهذا التحدي قد خرجت من التابوت". (ص ٥٩) فحدثت نفسها قائلة: إنَّ البقاء بكرامة يحتاج المقاومة والتحدي، وإن الاستسلام يؤدي إلى الضياع والتخلي عن كل شيء. إنَّ ما تقوم بأخذه هو زكاة إجبارية من أموال الوطنيين لسد جوع أطفالها، هكذا تقول لنفسها عندما تقول لها صاحباتها إنَّ ما تقوم به يعتبر سرقة. وإنَّ سروالها "يجب أن يرفعه أولادي مثل العَلَم، ويمشوا تحته، لأنه هو الذي يطعمهم ويبعد عنهم شبح الجوع..". (ص ٦٣) فشخصيتها قيادية، ونامية وقادرة على الفعل حتى في أحلك الظروف وأصعبها.

لقد أتقن الروائي الفحماوي بناء شخصية بلقيس، ورسم أبعادها بدقة لتكون مؤهلة لحياة مليئة بالظلم والقهر والفقر.

وتقول الناقدة نجود الحوامدة: إنَّ الفحماوي وإنْ برع في رسم شخصية بلقيس بما يلائم ما أُسند إليها من دور في الرواية، إلا انه أيضاً بث لمسة ذكية في هذه الشخصية المحورية، "تتمثل في جعلها معادلاً سلوكياً للشخصيات النسوية في الرواية، اللواتي طبعت سلوكهن تصرفات مشوبة بالنزق والرغبة في البوح قولاً وفعلاً أحياناً عن معاناتهن الروحية والجسدية". (٦)

لقد جهد الروائي في اسباغ الصفات الجسدية والنفسية على بلقيس ليصنع منها رمزاً صلباً قادراً على هزيمة القهر والظروف اللاإنسانية التي يعيش فيها اللاجئ الفلسطيني، ولتكون الأم التي تنجب الأمل القادم (الفتى رزق).

قدم صبحي الفحماوي في روايته "صورة مشرفة للمرأة الفلسطينية الكادحة في المخيمات وأرض الشتات، وكفاحها المرير في خضم واقع قاس رهيب. إنَّ بلقيس مثال للمرأة الفلسطينية البسيطة القوية المتحدية المقاومة، وهي تذكرنا بشخصية "أم سعد" في رواية غسان كنفاني.

إنَّ الرواية هي رواية المرأة الفلسطينية الصبورة والمجاهدة والمتمردة على واقعها البائس، وصانعة أجيال الغد، إنها رواية الشقاء والتحدي والنصر.

صالحة السمراء...والأحلام المسروقة

هي أم في الثلاثينيات من عمرها مهجرة من قرية صفورية، ذات ابتسامة أخاذة، وغمازة محفورة في خدها الطري، وترتدي "الثوب الحرير المشجر بألوان صارت باهتة على طولها المعتدل، والذي كانت يوم التهجير قد لمحته بين أثواب عرسها السعيد، ... "فعزّ عليها تركه وحيداً بين الردم، فلبسته فوق ثياب عدة، لتحتفظ لنفسها بشي من ذكريات أيام العِزّ، قد تخفف عنها مرارات التشرد، وقد يدفئها من برد الليالي التي ستقضيها على الطريق، بلا غطاء...". (ص ٢٤) ولم تعرف المسكينة غنها ستقضي حياتها كلها دون غطاء.

وتناديها صاحباتها بالسمراء للتدليل والمحبة، مع ان لون بشرتها يشبه اللون الفاتح لحَبِّ القهوة غير المُحمّصة، ذات الرائحة الزكية، وهي ابنة الحسب والنسب، وأبوها من تجار الناصرة والقرى المحيطة، التي تنتشر غرباً حتى ساحل بحر عكا.

وفي الرواية غالباً ما تعود صالحة في ذاكرتها إلى أيام العز والجاه التي كانت تحيا فيها قبل أنْ يأتي المحتلون، ويستولون على كل شيء حتى على ساعتها السويسرية الأصلية، وقرطها التي انتزعته مجندة على أحد الحواجز بشدة مما أدى لقطع حلمتي أذنيها.

بسبب التهجير وخسارة البيت والبساتين، تعاني صالحة الكثير، فتبدو أكبر من عمرها بسنوات، فالهموم المتراكمة قصفت ظهرها.

وعندما تبدأ النساء بالحديث عن خطورة الطريق الذي تحتوي الأفاعي والضباع، تتحسر صالحة على الأيام الماضية، وتقول لصاحباتها: لقد بنى زوجي أبو خضر لنا بيت حجر نظيف مدقوق، "طابق أرضي، وعِلِّيّة في أرض بيارة أبوه، المُطلة على بحر عكا. جاب أحسن معلمين بناء وعمال من صفد... كنت يومها عروس، وكانت بيّارتنا تمتد من غرب صفورية باتجاه البحر، وكنا في الموسم نعبِّي من صباحية ربنا، كل يوم خمسين، ستين "صندوق خشب" برتقان... يافاوي تلاقي ريحتهن بتفحفح من آخر الدنيا، تقولي عطر هابب علينا مع الضباب الشفاف الندي". (ص ٥٠-٥١) ونحمّلهن لأبو خضر على العرباية ليذهب ليبيعهن في حيفا. ويرجع أبو خضر محمِّل العرباية رمل بحر للبناء، ويشتري أسطوانة موسيقية لبيتهوفن، أو موزارت، أو باخ، أو أسطوانة غنائية لسيد درويش، أو لعبد الوهاب كهدية لزوجته. فصالحة كانت طالبة مدرسة مجتهدة، ومهتمة في سماع الموسيقى العربية والعالمية. وكان للبيت حديقة واسعة مليئة بنبات الصبر، وهنا يعود الراوية في رمزية ليخبرنا عن قدرة اللاجئين الفلسطينيين على الصبر والمقاومة، فصالحة تقول: "تهجّر الناس، وبقي الصبر واقف مسلّح بشوكه، ليقول للمحتلين: "أنا واقف، بصفتي ما زلت حارس فلسطين. تعرفن أنه الصبر مهما خلعوه، بيظل ينبت من تحت الأرض، ويتطاول بسرعة، وبيظل يقاوم؟". (ص ٥٢) تتذكر صالحة تلك الأيام بحسرة، وتأتي على أحداث النكبة والتهجير تحت القصف حيث لم تعد العائلة تملك إلا بغلًا نجا من الموت بأعجوبة، وها هو أبو خضر منذ استقرارنا في المخيم يشتغل على عرباية هالبغل؛ يوم شُغل، وعشرة قعود. الشغل في هذه البلاد مقطوع. الله يقطع هالعيشة!.

تستذكر معلمتها النصراوية التي عرفتها على الموسيقى، وعلى شعر إبراهيم طوقان ومنذ ذاك الوقت بدأ اهتمامها بسماع الموسيقى.

شخصيات برقية أضاءت أحداث المخيم

أبو خضر والذي هجر بعد أنْ قتل والده تحت القصف الذي دمر منزله الفخم، لم يتبقَ له سوى بغل يجر عربة تحتاج بغلين، نقل فيها عائلته حتى وصل إلى هذا المخيم البائس. يعمل على توصيل مواد إلى هذا وذاك تحت الطلب مرة أو مرتين أسبوعياً.

في أحد الأيام يقتحم مجموعة من اللصوص بعض الخيم لسرقة ما قد تحتويه، وهنا تتدخل الفرقة ١٦ الأمنية التي تلقت أوامر بتأديب اللاجئين حتى لا يعرضوا أمن البلد إلى الخطر، لذا اقتحم جنود الفرقة ١٦ أول خيمة صادفتهم، وكان فيها رجل مسكين يسمى أبو مسعد وعلى ما يبدو ليس له من اسمه نصيب، وكان في تلك اللحظة في حضن زوجته عارياً، اقتاده الجنود بعد أنْ أشبعوه ضرباً، ثم تركوه لأنهم يعرفون إنه ليس الفاعل، وهنا يحدثنا الراوي عن سلب اللاجئ من كل شيء، واغتصاب حتى لحظاته الحميمية، فالخيمة ليس لها باب يمكن أنْ يغلق.

بعد الإفراج عن أبي مسعد، لم يكتف الجنود بما فعلوا، فبحثوا عن ضحية أخرى لتأديب المخيم، فقال قائدهم: قد يكون الجاني هو هذا الحيوان الذي يسمونه أبو خضر البغل. ولهذا بحثوا عنه، فلم يجدوه في خيمته، فبقوا طيلة هذا اليوم يتربصون به... حتى إذا دخل خيمته دخل الجنود خلفه وانهالوا عليه بالضرب المبرح أمام زوجته وأطفاله، ويخبرنا الراوي أنَّ السبب في استهداف أبو خضر البغل، يعود إلى العاهرة الأربعينية المشهورة بلقب شفصانة العرجاء، والتي شاهدها أبو خضر عند المحرقة تحاول استخراج مخ الحمار لإطعامه إلى زوجها كبير السن ليبقى ذليلاً ولا يرفض لها طلب. فصرخ أبو خضر بها وشتمها، فولت هاربة. وهي تعمل عامل نظافة في مركز الفرقة ١٦، وتقييم علاقات مشبوهة مع قائد المركز الشاويش أبو طرخان، فاستغلت موضوع السرقات لتنتقم من أبي خضر فبلغت عنه، ونظراً لخدماتها الجليلة قرر القائد تأديب أبو خضر البغل.

وعلى أي حال، سواء كان أبو خضر البغل هو الذي يقود العصابة أم لا، فالأوامر تقضي بتأديب المخيم وليكن ذلك بتأديب أبو خضر البغل، فالمخيم بحاجة لتعلم النظام، فاللاجئين غير متعودين على النظام "ولهذا فهم يحتاجون إلى ما نسميه (خطوة تنظيم)، بل هم بحاجة إلى خطوات تنظيم، والله من وراء القصد، فنحن نقصد استتباب الأمن، ليس

إلا، والناس تريد أنْ تعيش، وكي يعيش الناس، فلا مانع من ترويض المتزعمين لأي خروج على النظام". (ص ١٥٤)

حمدة المحمودية

هي أرملة أربعينية لديها ثلاثة أطفال، استشهد زوجها على ثرى وطنه، وتركها مع أطفالها الصغار دون معيل، مما اضطرها لحمل مسؤولية التهجير، ورعاية وتربية أطفالها وحيدة دون سند. وهي قصيرة نسبياً، وتمشي كبطة مدملجة، وفيها "بقية من صبا جميل في حركتها، ووجه مليح ما يزال يتوج دخولها سن الأربعين". (ص ٢٤)

وهي امرأة ما زالت تحتاج إلى رجل يفلحها، ويعيد إلى جسدها الحيوية المفقودة من آلام التهجير، والشقاء والتعب الذي لا ينتهي. تجلس في الليالي وبعد أنْ تنهي واجباتها اتجاه أطفالها، تستذكر زوجها الشهيد، وتعاتب الجميع على تقصيرهم اتجاه الشهداء، وتتساءل: لماذا لا يقوم الناس بتزويد أهل الشهيد الجياع بالمؤونة، أليس قتل دفاعًا عنهم وعن وطن مجروح؟ لماذا لا ينظر الناس خلفهم وهم يتمتعون بمباهج الحياة ليروا الجرحى والقتلى فداء للوطن؟

وفي ظلمة الليالي لا زالت حمدة تحتفظ ببقية لذة سرقتها من شاب لا يتجاوز الثامنة عشرة، يوم التقته تحت شجرة وارفة الظلال في موسم الزيتون. يصاحبها تعذيب الضمير من الجريمة التي ارتكبتها. إلا أنها ما أنفكت تحلم بالشاب مسعف، وتمنح لنفسها المبررات لفعلتها، فهي امرأة مكلومة، ومحرومة من حقوقها الجسدية. تقول عن تلك الواقعة: "كانت متعة مذهلة بالنسبة لجسدي، ولو أنها محرمة...متعة لم أذقها منذ ثلاث سنين.. متعة لم أذقها طيلة العمر كله.. متعة لم تطو سيرة الشهيد، بل كانت مرهماً خفف من غلواء عذاباتي المستمرة من يوم استشهاده وحتى اليوم.. متعة لم أخطط لها، ولكنها كانت حاجة مُلحّة، تضغط على أعصابي في كل مكان، فما أنْ وقعت بها حتى روت شراييني العطشى، ولينت عضلات جسدي كلها، وأنعشت خلايا مخي التي ارتوت بالسعادة، ولينت عظامي التي كانت تطقطق تحت جسده الطري الصلب المتين...". (ص ٤١)

وتلقي اللوم على ما اقترفته على الحياة العاهرة التي خطفت زوجها، وبالتالي الاحتلال الذي قضى على كل شيء جميل في حياة الفلسطيني.

أبو الفيلة

هو رجل عجوز من تعساء وبؤساء المخيم، "نصفه مشلول شللاً جزئياً من الجهة اليسرى، ابتداء من مُخِّه وعينه وفمه، ونزولاً حتى أخمص قدميه، وذلك بسبب صدمة عصبية أصابت الرجل القوي المتين أيام الهجرة، فصار عنده التهاب، لم يجد من يداويه، فتفاقمت حالته". (ص ١٣٠)

مرض أبو الفِيلِة مرضاً شديداً كاد يقتله، ولكن الله نجّاه، فعاش يزح تحت معاناة صعبة، وعذاب لا ينتهي، شغّله صاحب الأراضي أبو عبد النور حارساً لبئر ارتوازي يملكه، وللمزرعة المحيطة به. ونتيجة لشح المياه وخاصة في الصيف، فإنَّ النساء يحملن تنكاتهن، وينزلن لتعبئة الماء من مضخة بئر "الوطني" أبو عبد النور، فيلاقيهن الحارس أبو الفيلِة وهو يمشي بخيلاء ديك الحبش فوق العشب في الطريق إلى المزرعة.

بلقيس وصاحباتها يتفاجأن به، وتدور بينهن محادثة تكشف لنا عن آرائهن فيه، فتقول بلقيس: "عزاء!!! هذا أبو الفيلِة يتَقمّز أمامنا باعوجاجه يا ملعونات". (ص ١٣٢) وترد صالحة السمراء:

"طبعاً هو يعرف أنه ليس فيه للنساء، ولهذا فهو مرفوع عنه الحجاب". (ص ١٣٢) فتقول بلقيس بغضب عنه: إنه رجل سافل ونجس، فهو يجمع الصغار والكبار ويأخذ يحكي معهم كلام غير ملائم كما يقول لي رزق.

وتساءل حمدة المحمودة، ماذا يقول لهم؟ وتجيب بلقيس: هذا الأهبل يحدثهم قائلًا:

"أنا يا شباب بحب الحرب. يا ريت تصير حرب عالمية ثالثة! يا بي قديش بحب الحاريييييييب!". (ص ١٣١) وبعد حرب هتلر لا بد أن تأتي حرب ثالثة تأكل كل شيء، الناس بتخاف من الحرب وأنا بحبها، لأن بسببها سترجع فلسطين، وكمان سيذهب كل الرجال إلى الحرب وأنا لأني ضعيف ونصف بني آدام سأبقى في المخيم، يعني عند

النسوان، " ساعتها بتفظى للنسوان...بتلاقيني يا حبيبي بنام معهن، كل سبعة مع بعض. أي شو بدي ألحِّق، حتى ألحِّق عليهن؟ هن بيفكرن إني ما بنفع للنسوان، لكن أنا والله ذيبك..!". (ص ١٣٢)

وتضيف بلقيس إنَّ الأولاد يضحكون عليه، ويعرفون أن لا فائدة منه، فحتى لسانه خربان، ورغم كلام بلقيس إلا أنها تستدرك قائلة: إنه ليس منه أذى سوى لسانه النجس.

وعندما يشاهد أبو الفيلة النساء الثلاثة، يقترب منهن كطاووس، ويحذرهن من الدخول إلى مزرعة الباذنجان أو الدوس في أثلامها. وأنه يراقبهن، فترد عليه بلقيس: احترم نفسك وإلا، وينطلقن إلى البئر.

وفي طريق عودتهن يتفاجأن بأبي الفيلة، وقد قطف لكل منهن خمس حبات باذنجان كبار، وضمّة بقلة، وقال لهن: "هذا للأولاد. اطبخن اليوم بيتنجان، وبكره (فرفحينة)- يقصد البقلة-.. يا الله. إنْ شاء الله أبو عبد النور ما يحوِّش البيتنجان، خليه زكاة عن أمواله!". (ص ١٣٤) فيعرفن إن مهما جرى يبقى أبو الفيلة ابن المخيم ولا يستطيع أن يبدل جلده.

يعرفن أخيراً إنه يملك قلباً صافياً، وإنَّ الزمن القاسي ظلمه بالتهجير والمرض، وأنه لم يعد يملك سوى ثرثرته ليبرد غليانه، لاعنًا كل شيء.

إنَّ شخصية أبو الفيلة، والتي رسمها الكاتب لتعبِّر عن الضعف والمرض في البداية، كانت شخصية نقية سحقها الزمن الأسود، إلا أنَّه لم يستطع محو وإذابة معدنها الأصلي والذي يمتاز بالصلابة والقوة والنقاء والمحبة للناس والأرض.

مراقب البلدية

تبيع النساء اللاجئات ما جمعن من أعشاب برية تجود بها الطبيعة، في السوق الشعبي التابع للبلدية، حيث يأتي إليه اللاجئون وأهل البلد الأصليين لبيع منتجاتهم الزراعية.

وفي السوق يوجد مراقب البلدية الذي يجمع رسوم البيع، وهو "قصير القامة، رفيع القوام، مثل قلم رصاص مبري، ورأسه الصغير مستدق من أعلى بشعره الأشعث، مثل حبة جوز الهند، يتجوَّل بحركة قلقة بين العارضين والعارضات، ببنطال كاكي شاحب فضفاض، يشبه بنطال الخيّال الفاشل، وقميص كتاني غير واضحة معالمه، تحتويه سترة قصيرة يبدو عليها البلى من دون اهتراء، وبيده دفتر سندات قبض صغير، وقلم كوبياء تنطبع صبغته الزرقاء الكحلية على أصابعه الثلاثة التي تمسك بالقلم". (ص ١١١) هذا المراقب الذي يظهر عليه الجشع سواء المادي أو الجنسي حيث يستغل حاجة بعض النساء ليعفيها من الرسوم مقابل تقديم خدمات جنسية، نراه حاقداً على رجال السوق، ويتفحص بنظره وجوه النساء لعله يظفر بامرأة مسكينة مكسورة الجناح، ومحتاجة لكل فلس ليراودها عن نفسها، مقدمًا مساعدته، فإذا تجاوبت إحداهن معه وخضعت له، "ينفشُ ريشه المتضائل أمامها، ثم يستدرجها إلى مستودع صناديق وأغراض منزوٍ، خاص به، يحمل مفتاحه بيده، فيقودها بلطف وحمحمة إلى مخدعه، مصحوبة بوعود كثيرة، حيث يختفي مع المستورة بين الصناديق المتراكمة، فلا يعلم ما يدور هناك إلا الله". (ص ١١٢)

أمَّا الباعة من الرجال، فإنه يذيقهم الويل، ويبتزهم، وإذا اعترض أحدهم، فإنَّه يصادر كل معروضاته، ويجعل أسفله أعاليه، ويُنَكِّدُ عليه يومه وغده، ويقلب شؤون حياته، لذا فالباعة اتقاء لشره يدفعون بالتي هي أحسن.

في هذا السوق الذي يضج بالأصوات المتنافرة والعالية، تعرض بلقيس وصاحباتها ما حملهن معهن من أعشاب، ولا تمر ساعتين حتى يبعن معروضاتهن ويغادرن بعد يوم شاق.

وقبل أذان الظهر، يغادر معظم البائعين والمشترين مواقعهم، ويخلفون كمية هائلة من النفايات، يتكفل عامل النظافة بكنسها، فيقوم بجمعها في براميل كبيرة، حتى تأتي سيارة البلدية لتحملها إلى المحرقة الواقعة في شرق المدنية، والقريبة المخيم، حيث لا أحد يعترض على الروائح الكريهة ولا الدخان، فاللاجئ المشرد والمسكين لا يشترط على المضيف بيئة نظيفة في إقامته.

الجدة الكبيرة...جذوة التمرد التي لا تنطفئ

الجدة الكبيرة أم صالحة كانت تمثل الجيل القديم الذي يحيط الجميع بالرعاية، وينشر الأمان والطمأنينة، فهي ترعى أولاد النسوة الذاهبات لجميع الأعشاب البرية، كما تعتني بأطفال الشهداء وتحنو عليهم. وكانت الجدة قد استوعبت صدمة التهجير واحتلال البلاد، وعرفت إنَّ العرب ضعفاء ولا يملكون غير التصريحات البراقة، وإنهم عاجزون عن الوقوف في وجه المحتلين، وإنَّ الاعتماد عليهم سيؤدي إلى استمرار حياة الفلسطينيين في عذاب مستمر إلى أن تقوم ناقة صالح.

وهي تعبِّر بقوة ووضوح عن رأيها، وتعلن تمردها على الوضع، بأنَّ هذه الحياة لا تليق بالشعب الفلسطيني، وإنَّ لا مكان يمكن أنْ يحتوي اللاجئين غير فلسطين، فلسطين وحسب، لذا لا مفر من العمل على العودة إليها.

العمال

العمال دائما ما يعبرون عن رفضهم لأوضاعهم الصعبة، ففي حوار بين العمال، يقول أحدهم

"اللعنة على هذه الحياة الشاقة". (ص ٧٦) فيؤيده آخر قائلا: "والله لولا جوع الأطفال وأمهم في البيت، لخرجت من هذه الدنيا ولو إلى البحر، حتى لو غرقت فيه، فهو أرحم من هذه الحجارة التي تطحننا ونطحنها". (ص ٧٦) ويستمر حديث العمال عن الأوضاع المزرية حتى موعد الإفطار، ولا ريب إن هذه الأحاديث تدلل على رفض الواقع ومحاولة التخلص منه وتغييره.

فحاتلتهم مزرية، فما أنْ تدق الساعة العاشرة صباحاً لتعلن موعد الإفطار، "إلا وعَرَقُ الواحد منهم ينقط من رأسه ووجهه وعنقه، فيبلل قميصه، وحتى سرواله الداخلي يصبح منقوعاً بالعرق الأصفر، هذا إذا كان له سروال داخلي أصلاً مع هذا الفقر، بينما الشمس الواقفة في السماء تجحظهم بقسوة، وهي تُسلِّط عليهم سخط أشعتها المُتلِفة،

فتعذبهم داخل سجنهم الكوني بالأشعة الخارقة الحارقة، والغبار يعبق الجو ويتصاعد". (ص ٧٦) فيُشاهِده مختلف المارة من بعيد.

أبو رزق الرجل المتهكم
شخصية محورية يقود الأحداث

إذا كانت النساء تشقى لقطف الأعشاب البرية، من أجل إطعام أطفالهن، فإنَّ الرجال لم يجدوا عملاً إلا في كسارات الحجارة التي كانت سابقاً ملكاً للشؤون العسكرية الإنجليزية، "وكان العمل فيها مخصصاً على من أصدر الحاكم العسكري الإنجليزي بحقهم قرار إعدام، أو للمحكومين بالأشغال الشاقة المؤقتة، أو حتى المؤبدة، فهم يعملون هنا إلى أنْ يأتيَ أجلهم... ولو دققنا في عذابات هذه الأعمال، فلن نجد أشقى منها، إلا شقاء الجحيم نفسه..". (ص ٧٢) دخلها الرجال بحريتهم، لأنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام جوع أولادهم.

وأبو رزق زوج بلقيس ليس استثناءً، فهو ينهض منذ الفجر، ويسير إلى عمله في كسارة حجارة، يمشي بنفسية تعيسة تجعل أعضائه كلها متعبة، يمشي "وهو يتفحص بدايات الضوء بعينين يُصغِّرهما بمزاج سوداوي ليستصغر الدنيا في نظره، وذلك احتقاراً لهذه العيشة الضنكى...". (ص ٧٣) يسير ويحاول أنْ يلتقط أكبر كمية من الهواء النقي كي يخلص صدره من هواء الخيمة الموبوء بدخان سراج الكاز. يشد حيله مبتعداً في طريقه صوب كسارات أبي الزنديق، الواقعة بين المخيم والمدينة.

يشعر أبو رزق إنه يحمل الكون فوق ظهرة، وليس خيمة صغيرة فيها زوجة وأربعة أطفال. يصل عمله ويبدأ عمله في تكسير الصخور. ورسم الراوي شخصيته بطريقة بارعة فهو طويل ونحيل، والمُشرّد الطيب، ويملئه التعب والغم، ولكنه يحاول أنْ يتنسى كل ذلك من خلال السخرية والتهكم، كما أنَّه يحفظ الكثير من القصص التي تسلي زملائه في العمل، وتشبه التحلية بعد الطعام وتشير إلى القدرة على التغيير وتحقيق الأفضل.

عندما يحين وقت الإفطار يهجم العمال على فطورهم القليل ليسدوا وحش جوعهم، وهنا تظهر شخصية أبو رزق الذي يتمدد وهو ضاحك، ويدعوهم لحكاية من حكاياته التي تسري عنهم وتخفف وطئة الألم الجسدي والروحي، فهو من خلال حكاياته الطريفة يحاول مساعدة الآخرين من زملائه على النسيان، "وقد يكون مرحُهُ هو وسيلته الوحيدة لنسيان هموم الهجرة القاتلة، وسياسته تلطيف الجو، لعل الذي يحاول نسيان مآسيه مؤقتاً، يجد مخرجاً لها، أفضل من الذي يستمر في التفكير فيها، وهو متوتر منفعل مشدود...". (ص١٢٤) فالرجل ولا ريب محطم من الداخل، ويعاني من التهجير وتداعياته لذا يستخدم موهبته في القص للتسرية عن نفسه وزملائه.

والرواية تستخدم أسلوب الفلاش بالك بكثرة، وهذا يمنح الرواية وأحداثها الحركة، ودقة التصوير والمقارنة بين ما كان، وما يكون وسيكون. فأبو رزق الذي اشترى وقية لحمة ليخفف من قسوة اعتقال ولده على عائلته، يستذكر مهارته في الصيد قبل التهجير من بحيرة طبريا، والكميات الهائلة التي يصطادها ويبيعها. ومع تلك الذكريات تفيض عينيه بالدموع الجاري. ويقول لنفسه: إن ما جرى للفلسطينيين سيجري لكل عربي في المشرق والمغرب، فهم لا يبالون بالفلسطينيين، ويسعون لإنقاذ أرواحهم دون فعل حقيقي، رغم أن سلاح المستعمر مصوب نحو أعناقهم.

ويتصف أبو رزق بالقدرة على الفعل، ويبذل جهوده من أجل الخروج من دائرة الفقر، لذا هو يفكر بتربية الدجاج والأرانب بعد أن تحسن وضعه المادي قليلا بتعينه مراقبا للعمال.

كما أنه يملك حلماً كبيراً، بقدرة أولاده الممثلين للجيل الجديد على تحقيق الغاية بالعودة إلى فلسطين.

وحيد ابن الأرملة وطايل الهلباوي

اختار الراوي أن يذكر هاتان الشخصيتين في حكاية على لسان أبو رزق، وتقول الحكاية إن شباب المخيم والعمال يذهبون عادة في المساء إلى المدنية ليلتقوا في مقهى الوحش. وفي أحد الأيام وبينما العمال يلعبون دخل الهلباوي وهو يشبه الوحش إلى القهوة

وهو "واحد طويل عريض، وكرشه فايض قدامه، مثل المَرَة الحامل تسعة اشهر، وقميصه فالتة جهة منه فوق البنطلون". (ص ٨١) وهو يعمل مراقب عمال في كسارة أبو شهوان، فوقع نظره على الشباب العاملين وهم يلعبون الشدة سعداء، وبما أنه لم يكن هناك كرسي ليجلس عليه فقد اتجه إلى شاب مؤدب اسمه وحيد الأرملة، ووقف فوق رأسه ثم سحب الكرسي من تحته، قائلا له: ابحث لك عن كرسي آخر.

والهلباوي ظهرت في الرواية كشخصية حقيرة و"متيِّس وساقط في الثامن ابتدائي، وطلع للشغل في الكسارة... ابن حرام، يحسب ويجمع ويطرح لصاحب الكسارة بلؤم، ويقود العمل بحقارة، ويراقب العمال بطريقة فظة". (ص ٨٣)

فدائمًا ما يصيح فيهم، قبل ما ينتهي وقت تناول الطعام، طالبا منهم البدء بالعمل، وعندما يعترض أحدهم يقول له: "قم وانجَرّ، بدهاش فلسفة زايدة! الدقائق الخمسة بتضيع على الطريق، من لحظة وقوفك وتمطِّيك وطعوجتك، إلى حين وصولك مكانك في العمل، وبدء التكسير!". (ص ٨٤)

فيقوم العمال إلى عملهم متثاقلين ومحبطين، شاعرين إنه يستغلهم، ولا يهتم بمشاعرهم.

أما الشاب وحيد الأرملة فاسمه الحقيقي وحيد عبد العزيز، واستشهد والده على يد المحتلين، عام ١٩٤٧ في قرية قيرِة، وهو ويبلغ الثانية عشرة من العمر، لذ أطلق عليه الناس هذا اللقب.

ابن الأرملة شعر بالإهانة، ولكنه لم يستطع أنْ يردها بشكل فوري، فقرر الثأر لكرامته، وعاد في تلك الليلة إلى بيته مهزوماً، ووحيد أنهى دراسةَ الصف السابع ابتدائي، قبل التهجير، ولم يستطع اكمال تعليمه بسبب الاحتلال، ولجأ إلى العمل ليسد رمق والدته وأخوانه الصغار الذين أصبحوا دون معيل.

وحيد ابن الخمسة عشر خريفاً فكر في الطريقة التي يمكن له أن ينتقم من الهلباوي، ودرس وحلل شخصيته، وبذلك فهم كيف له أن يستغل كره العمال له، وضعف العمل، وحتى تنجح خطته قرر أن يلتحق ببرنامج الدراسة الليلية..وما هي إلا سنة من الاجتهاد حتى حصل على شهادة ناجح في الصف التاسع الابتدائي، وعندها حان الوقت

الملائم للانتقام، فذهب إلى صاحب الكسارة وعرض عليه شهادته، وتطوع أن ينظم حسابات الكسارة دون زيادة بالأجر ليظهر له تفاصيل المصاريف، وكيف يمكن وقف هدر النفقات، وزيادة الأرباح. دهش أبو شهوان لقوة شخصية الشاب، ومنحه السلطة اللازمة. بعد أن قال له وحيد، إنه بحاجة للاطلاع على المصاريف المخفية من قبل الهلباوي، حيث فوجئ بهذه المعلومة ولعب الفأر بعبه، فقال لوحيد: زد الأرباح ولك مكافأة مجزية. وبالفعل وبعد جهد وعمل كبير اكتشف تلاعب بفواتير السولار، ومصاريف العمل. مما أدى إلى طرده، وتعين وحيداً مراقباً على العمال، الذي واجه الهلباوي قائلاً: "أي هيك سحب الكراسي يا طايل!". (ص ٨٧) استرد وحيد كرامته، وابتهج العمال بمراقبهم الجديد.

ولم يضيع وحيد الوقت، فطلب زيادة للعمال واعدا بزيادة الإنتاج، وهذا ما كان، هذا الأمر أسعد العمال، وقال أحدهم يمدح وحيد: "ينصر دينك يا وحيد، والله إنك رجل ابن رجل، والرجال أمثالك عملة نادرة هذه الأيام! يا عمي هذا ابن الشهيد عبد العزيز جمال اللي جنن المحتلين قبل ما يستشهد، فكيف بدكم إياه يكون؟". (ص ٨٧) وفي هذه القصة يخبرنا أبو رزق عن اللاجئ الفلسطيني الشاب الذي فقد والده الشهيد، وأضاع هويته، كيف تحول إلى رجل كبير يعمل ليصرف على أمه وأهوانه، واستطاع أنْ يجبر الآخرين على مناداته وحيد ابن الشهيد عبد العزيز جمال.

قام الروائي بتقطيع الزمن والحدث وأشغل المتلقي "بشرود وذكريات متنوعة عامرة بالأمثال والحكم الشعبية التراثية، التي أرادها فحماوي على طريقة ألف ليلة وليلة، حيث إنَ قصة يتوالد منها قصة أو حكاية أخرى، فيصرّ كاتبنا على سرد القصة التي توالدت من رحم حكاية سابقة، على أمل أنْ تخدم الحكاية الجديدة الرواية ومقاصدها". (٧)

وتعمق مفهومها في عقل المتلقي. وبهذه الحكايا المنسلة من الحكاية الأصلية، منح الكاتب روايته التشويق والتوتر، ووهبها المنعرجات حتى لا تبقى الرواية تسير في درب مستقيم دون مفاجآت ودهشة.

أبو الزنديق

أبو الزنديق مالك الكسارة، ويمتاز بخفة الدم وكثرة المزح، والقدرة على فهم عماله، وهو يعاملهم بطريقة جيدة ولا يضغط عليهم كباقي أصحاب الكسارات. ويصفه الراوي بأنه: كرشه كبير، وقصير ومدحبر، حطته البيضاء على رأسه وأنفه، ويعقدها على رقبته اتقاء للشمس والغبار.

أبو زنديق يسمع حكاية ابن الأرملة، ويفهم أنه المقصود بها، فيقول لأبي رزق: "أعرف مغزى حديثك هذا يا أبا رزق. أنت تقصدني بالتأكيد. طيب والله لأزيد أجرتكم من خمسة عشر قرشاً، إلى عشرين، وأعملك مراقب، وأضاعف أجرك مثل وحيد، ولو أنك مش ابن أرملة تجوز عليه الشفقة". (ص ٨٨)

وهنا فرح العمال، واحتضنوا أبا رزق، وعبَّروا عن امتنانهم لأبي الزنديق ووعدوه بزيادة الإنتاج. ومن خلال معاملته الجيدة لعماله، حصل منهم على مبتغاه، وأطمأنَّ على عمله في الكسارة، لذا سلم الشغل فيها لأبي رزق وتفرغ لأعماله التجارية في المدينة، بعيداً عن الكسارات وما يكسرون.

الشخصية الجديدة

رزق الحلم النابت وسط الخراب

يبلغ رزق الرابعة عشر من العمر، ويدرس في الصف الثامن، وهو الصف الذي افتتح مؤخراً نتيجة لإلحاح الأهالي. وتظهر شخصية الفتى قوية ومبتكرة وحنونة، فهو يساعد أخويه الصغار ويلاطفهم ويلعب معهم، ويصنع لهم الألعاب مما يتوفر من خردوات. في أحد الأيام يتأخر حتى العصر، ولا يعود إلى البيت من المدرسة، مما يقلق أمه وأخوته،

في هذه اللحظات يصل أبو رزق إلى مشارف الخيمة منشرحة أساريره لمضاعفة أجوره في العمل، يسعد الأبناء بالخبر، غير أنَّ بلقيس يظهر عليها القلق والخوف، وتخبر زوجها أنَّ رزق لم يعد بعد، وفي الأثناء يحضر مراسل المخفر الملقب ب" البوم الكبير أبو لهب" وسمي كذلك لأنه مرسال المشاكل. وأخبرهم أنَّ رزق معتقل في المخفر ولا بُدَّ من حضور أبو رزق لبحث موضوع ابنه.

وعلى عجل رافق أبو رزق مرسال الشؤم دون أن يغير ملابسه، ووصلا إلى المخفر، وقابل الشاويش طرقان، الذي عبر عن غضبه من رزق، قائلاً لأبيه: إنَّ ابنك يعمل في السياسة لهذا تم اعتقاله، وسأقوم بتحويله إلى المحكمة في المدنية.

ثم بدأ كلامه يخف نبرته، وأخذ يلاطف أبو رزق، وطلب من مرساله إحضاره من النظارة، جاء الولد وبدا عليه إنَّه تعرض للضرب، ويشعر بالخوف ولكنه لم يبك.

وأخبر الشاويش أبو رزق بقصة اعتقال ولده، قائلاً: إنَّه إثناء تفقده المدرسة ليطمئن على سير الدراسة والتدريس، والأمن، ولدى مروره مع المدير في أحد الصفوف، بالصدفة كان الدرس "إنشاء" فاطّلعت على ما كتبه بعض الطلاب بصفتي رجل أمن، وفوجئت بما كتبه الطلاب مما اضطرني لاعتقال أربعة منهم، وكوني رحيم بالصغار فأنني اكتفيت بتأنيب الأهالي وتوقيعهم على كفالة خطية.

وبناءً على أمر الشاويش، قرأ الولد ما كتبه في الصفحة، مبتدئاً بالأسطر الأولى:

"أحبك يا وطني الغالي،

أحبك يا فلسطين المعتقلة خلف أشواك الحدود،

وأنا مستعد للتضحية بروحي في سبيل العودة إليك أنا وأهلي كلهم..". (ص ١٧٩)

أريت هذا الرعب، ابنك يريد أنْ يضحي بروحه من أجل العودة، وهذا معناه القتل والتدمير، ونحن في هدنة مع العدو!، يرغب ابنك بإشعال حرب الحكومة غير مستعدة لها، فما زلنا في طور الاستعداد لها، وبعد التهديد والوعيد وقع أبو رزق تعهد خطي يتضمن عدم عودة الولد الجاهل لمثل هذه الكتابات المُربكة للدولة، وتشكل عليها خطورة.

سارا في طريق العودة صامتين، والأب يحضن ابنه ويشجعه، ثم قال له: إنَّ العودة إلى فلسطين واجب مقدس، وعندها يسأل رزق: وكم شهر نحتاج للعودة؟

فيقول الوالد: لا بد من العمل لتحقيق حلم العودة. فيجيب رزق: "هذا ما أحلم به يا أبي". (ص١٨٠)

أراد أبو رزق أنْ يغيِّر الجو، فقرَّر أنْ يشترى وقية لحمة ليكون احتفالاً بعودة رزق وزيادة راتبه.

يفرح الأولاد فأخيراً سيتذوقون طعم اللحم...

فالراوي أراد من شخصية رزق أن يقول لنا إن الغد سيكون أجمل، وإن الحلم بالعودة وإن كان صعبا ولكنه ليس مستحيلاً.

النهاية

بعد وجبة اللحم الدسمة، كان لا بُدَّ أن ينتهي اليوم بوجبة جنسية مفتقدة أيضاً، لذا تنام بلقيس وقد هدّها التعب، وفي نومها يأتيها حلم غريب مليء بالأشواك، وأفعى ضخمة تحاول ابتلاع بقرة تتلوى من الألم وتصرخ طالبة المساعدة دون نتيجة، وعندما لا تستطيع تقذفها إلى حافة القمر الذي يظهر بدراً في عز الظهيرة، ويهجم البشر عليها و"يسحبوها بحبالهم من بعيد وبسرعة متناهية يذبحونها ويأكلونها نيئة ثم لا يلبثون أن يتصارخوا وهم يتلوون ألماً ينتشر في بطونهم من سم الأفعى ويصل إلى عقولهم التي تصاب بجنون البقر فينتشرون في الأرض يسرقون ويكذبون ويدمرون ويصلّون ويزنون ويتصدق كل منهم بشق تمرة فتتجمع شقائق التمرات على شكل جبل مهول يأكل منه مارة السبيل كلهم فيجدونه لا يسمن ولا يغني من جوع". (ص ١٩١) ويتحول كل شيء إلى اللون الأصفر فتهب رياح صفراء من الغرب فتصير الأرض صفراء والأشجار صفراء وثمارها صفراء، والصخور صفراء والبيوت صفراء والسيارات صفراء والوجوه صفراء... فالعالم أصبح لا يطاق مع كل هذا الجنون والظلم والقهر الذي يزح تحته الفقراء والبسطاء من البشر من قبل بشر تحولوا بفعل القوة الجبارة إلى آلات للقتل والتدمير في عالم فقد المحبة والإنسانية والفرح.

ترتعد بلقيس في نومها وهي ترى الأرض تتشقق مثل تشقق كعكة سيئة الصناعة، وإنَّ الأرض التي كانت خضراء غصت بالطائرات الحربية والقنابل، والموت والدمار فتحاول حماية أطفالها بيديها المحروقة اللتين لم يبق منهما سوى العظم الأسود المحروق، فتنهض مذعورة فتحمد الله على أنها ما تزال على قيد الحياة، وأنَّ أطفالها وزوجها بخير.

تشرب جرعتي ماء، ثلاث، وتستشهد قائلة: "الله الواحد الأحد، الفرد الصمد..."، ثم تعود لتحاول النوم بعد أنْ تخلصت من الكابوس اللعين، ففجر الغد أمامها عمل كثير ولا بُدَّ لها من النوم قليلا.

ولا شك أنَّ الأحلام تجّلي ما يعتري الروح من قلق، وخسارة الألفة والأمان والطمأنينة والاستقرار. وإن كانت بلقيس تبذل جهدها لتكون طبيعية ومنسجمة في حالة صحوها، "فإنَّ الحلم يكشف استحالة المحاولة لذات دمرها واقعها واغتربت عن هاجس حريتها". (٨) والحلم كما يقول كولون ولسون هو: "تمزيق القناع عن أسرار الأنا المختفية، أو الذات السامية". (٩)

ومع بداية خضرة فصل الربيع، يزداد عدد النساء اللواتي يذهبن كل صباح لجمع الأعشاب البرية لجمع قوت أسرهن وأصبح هذا الأمر طابع لحياة أغلب نساء المخيم.

فما أنْ يشرع الليل بالرحيل، حتى تنهض بلقيس من نومها، "وتخرج إلى هذا الزقاق الصخري الترابي، المتروك ولو ضيقاً ليمر الناس منه ما بين الخيام، فتجلس المستورة وهي تشمّر ثوبها الطويل فوق ظهرها، وتنزل لباسها الطويل في هذا الليل البهيم، وتجلس القرفصاء، فتبول على الطريق الترابية، وتبقى هكذا جاثية إلى آخر قطرة، تبحث عن حجر لتمسح به مصدر البول المتوقف عن التنقيط، منتظرة صحوة الجارات الكسولات من النوم". (ص ١٩٤)

صور الروائي ضيق الشخصيات بالواقع المفروض، وتبرمها الشديد، مما يوحي بقرب انفجارها. وتنتهي الرواية كما تبدأ، بأنْ تبول بلقيس بعد أنْ تخلع سروالها الخشن على عالم دون رحمة ولا إنسانية.

الهوامش

١- عبد الجبار العلمي، "التحدي والمقاومة في رواية صبحي فحماوي"، صحيفة الوطن العُمانية، ١٠-٨- ٢٠١٤م.

٢- صبحي فحماوي، سروال بلقيس، منشورات كل شيء، حيفا، ط١، ٢٠١٤م، ص ١٤.

٣- نجود عطا الله الحوامدة، "الشخصية المحورية في سروال بلقيس"، صحيفة الرأي الأردنية، ١٠-١٠-٢٠١٤م.

٤- المرجع السابق.

٥- المرجع السابق.

٦- المرجع السابق.

٧- نازك ضمرة، الشتات والشقاء. حين يجتمعان في رواية "سروال بلقيس"، صحيفة الرأي اليوم، ٩-٩-٢٠١٤م.

٨- غادة خليل، الاغتراب في أدب حيدر حيدر (١٩٦٨-١٩٩٥)، إشراف الدكتور سمير قطامي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م، ص ١٤٥.

٩- كولن ولسون، اللامنتمي، ترجمة أنيس زكي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص ١٠٥.